مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN2543-3857
ISSN :

المجلد05/العـــدد:02 (2021)،ص
128-113

تمثّلات المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة
- قراءة في رواية صمت الفراغ لإبراهيم سعدي -

Representations of the intellectual in Modern Algerian Novel
-Reading in the novel The Silence of Emptiness by Ibrahim Saadi-

د. أحمد ملياني[1]

ahmed meliani

[3] كلية الآداب والفنون . جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف (الجزائر)

a.meliani@univ-chlef.dz

ملخص:

إنّ هذه الورقة البحثية؛ وفي نزعها للتطبيق، تعدُّ مسحًا تحليلياً وبحثًا في الشخصيّة المثقفة في رواية "صمت الفراغ" لإبراهيم سعدي، الذي يعد واحدا من الروائيين الجزائريين الذين مارسوا الكتابة فلسفيا في تناولهم المواضيع الاجتماعية والثقافية والسياسية في عديد الأعمال الروائية، فكانت رواية "صمت الفراغ" بأنساقها وشخوصها قفزا إلى عوالم الفلسفة وأسئلة المثقف الوجودية بين إكراهات الواقع وزئبقية القيم.

كلمات مفتاحية: المثقف؛ أسئلة الهوية، إبراهيم سعدي، صمت الفراغ.

Abstract:

This research paper; In its application, it is an analytical survey and research into the educated personality in the novel " The Silence of Emptiness" by Ibrahim Saadi, who is one of the Algerian novelists who practiced writing philosophically in dealing with social, cultural and political issues in many works of fiction. The novel " The Silence of Emptiness " with its formats and characters They jumped into the realms of philosophy and the existential questions of the intellectual between the constraints of reality and the mercurial values.

Keywords: the intellectual; Identity questions; Ibrahim Saadi ; The Silence of Emptiness.

1. مقدمة:

استأثرت الشخصية باهتمام كبير من قبل المشتغلين على فن السرد نقدا وإبداعا منذ أمدٍ بعيدٍ، وقد عدّها النقاد ركنا أساسا في صرح البناء الروائي، من حيث الدور المهم الذي تؤديه، والمتمثل في تحقيق النسج والتلاحم بين عناصر السرد الأخرى، المرتبطة بها أشدّ الارتباط، مما جعل بعضهم يرى بأنها معيار الجودة في الرواية، تتحدد ماهيتها، ويضبط مفهومها، وتستكشف دلالتها من خلال ما تقوم به من أفعال، وما تؤديه من أدوار، إضافة إلى مشاركتها في إنتاج الدلالة والإحالة على انتماء النص الثقافي وبذلك تصبح (الشخصية) فاعلا في الرواية، ومحرّكًا للأحداث داخل النص من خلال ما تقوم به من وظائف منوطة بها.

وربما تكفي نظرة بسيطة على التجربة الروائية لإبراهيم سعدي للتدليل على احتلال البطل المثقف لبؤرة السرد، وتحريكه للحدث الروائي، بفضل تشكيله للضمير الحي للشعوب، إضافة إلى امتلاكه قابلية الوعي بالأشياء. وبدا الحس الإبداعي للكاتب سعدي مواكبا للتغيير الذي طرأ على نموذج المثقف في الرواية العربية بعد هزيمة 1967، إذ لم يعد البطل يلقى العناية التي أحيط بها في الرواية الكلاسيكية، باعتقاد أنه الشخصية المحورية القوية والممكنة من تحقيق كل الرغبات، وإنما أصبح البطل منكسرا متراجعا كلما سعى لواقع أفضل، تستحيل رغبته إلى واقع عنيد يكاد لا يبرح مكانه[1].

2. سيميائية المثقف في رواية"صمت الفراغ":

لم يكف إبراهيم سعدي كعادته عن تسليط الضوء على جملة من القضايا الوطنية الكبرى، حيث ترك بصمته واضحة على السرد الروائي الجزائري، بفضل اشتغاله على نموذج الشخصيات المثقفة، ففي "صمت الفراغ" أجمل مجموعة من الأسباب ذات الفاعلية والتأثير في التحول الاجتماعي عقب أحداث أكتوبر 1988م بالجزائر، لكن هذه المرة ركز فيها على معاناة نخبة المثقفين الإعلاميين، التي تنطبق في غالبها على كل مثقف جزائري، مهما كان انتماؤه أو تخصصه الثقافي.

وإذا كانت هذه الرؤية السردية تتماثل إلى حد كبير مع مضمون كثير من النصوص الأدبية الروائية مثل: "صوت الكهف" لعبد الملك مرتاض و"الشمعة" للطاهر وطار وغيرها، إلا أنها تختلف عنها في طريقة تناولها لإشكالية المثقف الجزائري، في كونها أكثر جرأة على فضح السلطة، ورفض الفكر التكفيري، من

خلال تركيبها الحكائي الذي يبرز وضع المثقف بين الماضي الطائش والحاضر المتأزّم.

1.2 التحليل السيميائي للبطل المثقف:

تظهر الشخصيات الإعلامية المثقفة في "صمت الفراغ" على أنها مجموعة من الناس متماثلين في الصفات والتخصص الثقافي، ويعدّ الصحفي الأديب والشاعر "عبد الحميد بوط" البطل الروائي المثقف بلا منازع. حيث تميزت شخصيته بمستوى ممثلي، اتخذت فيه صورة فرد يقوم بدور ما في الحكي، واغتدت شخصية فاعلة. في حين تمثل باقي الشخصيات متفرعة بين العداء والصداقة(حمو سمير، فلة، مهدي، حسن خندق، شهرزاد، فضيل، جعفر بوذا، صونيا...) عناصر مكملة لكشف واقع الساحة الإعلامية في عهد الإرهاب الهمجي.

واتخاذ البطل هذا الاسم "بوط" جاء بغرض تلخيص هوية المثقف الجزائري مع مطلع التسعينات، فهو مشتق من الذل والفقر الذي يعقب حالة العز والغنى، وهذه الصفات الدالة على فقدان المثقف لقيمته، يعززها وضع شخصية "عبد الحميد بوط" الذي توالت عليه النكبات، فأوقعته بين نار السلطة ونار الإرهاب وإهمال المجتمع.

وقد تجسّدت هذه المأساوية التي يعيشها المثقف مع بداية الحدث الروائي من خلال ثلاث رسائل متوالية تلقاها البطل، أوّلها من مقر عمله "جريدة الصدق" التي "أصبح معها غير موثوق به سياسيا، -بشيء آخر- غير إرسال أخبار الاغتيالات والمجازر"[2]، لينتهي مصيره بعدها بالفصل من العمل دون حجة مقنعة.

وثانيها من قبل المجموعة الإرهابية التي جعلت من الموت الوسيلة الوحيدة للقضاء على كل نبراس ثقافي فأنبأته "بوجود اسمه في قائمة المحكوم عليهم"[3]، وتزامنا مع اضطهاد السلطة للمثقف "بوط" فرض عليه فشلا في ارتباطه بشهرزاد.

ولما جاء تركيز السارد في النص جله منصبّا على إمدادنا بصورة عن واقع المثقف الجزائري، وعن تجليات الصراع الثقافي الإيديولوجي العنيف زمن العشرية الماضية، من خلال تتبع مراحل شخصية البطل، آثرنا أن نقوم بتحليلها في ظل بنائها التشخيصي، والعلاقات الرابطة بينها وبين الشخصيات الأخرى،

برؤية استنتاجية تتبدى معها هذه العلاقات مادة دسمة، ومرجعية دلالية للإحالة إلى الصراع بين المثقف/ السلطة، المثقف/ الإرهاب، المثقف/ المجتمع...

2.2 التشخيص الوصفي للبطل المثقف:

نحاول استنطاق بعض العناصر السردية والخطابية، بهدف تحديد دلالة المشهد الوصفي لشخصية "عبد الحميد بوط" الذي ظل يؤكد في كثير من النصوص الروائية الجزائرية علو مرتبة المثقف ومشاركته في البناء الوطني، بالرغم من العزلة القاتلة والوضع المأزوم، ونستند في ذلك على عاملين اثنين: [4]

1.2.2 عامل التشخيص الشكلي (الخارجي):

تتوافق مجمل السمات والتمظهرات المحدّدة لشخصية المثقف "عبد الحميد بوط" في النص لتعطي في المستوى العميق للدلالة صورة المعاناة والعزلة، اللتان يعيشهما المثقف الجزائري، وتتبدى معالم هذه العزلة عبر مستويات حياتية مختلفة منها اليتم الذي عاشه البطل بعدما "توفيا والداه وهو لا يزال بعد طفلا، أخته "جوهرة" مقيمة في كندا، والأخت الصغرى "بهجة" ماتت في العشرين من العمر"[5].

وحرصا من السارد في تجسيد ظلامية الوضع المأساوي الذي يتخبط فيه المثقف، عمل على جمع كل المواصفات التي من شأنها أن تقبّح الخِلقة الإنسانية، وتبشّع منظرها إلى درجة أفقدت "عبد الحميد" الشعور بالمودة إزاء وجهه، فقد كان "ذا جبهة عرضة وبارزة، وذا خدين غائرين، بارزي العظام، وعينين كبيرتين، جاحظتين، وشارب رقيق"[6]. فيما لم يزد وصف هذه الشخصية التائهة بين شوارع المدينة وكل الفضاءات التي تتحرك فيها عن صورة إنسان نحيل جدا وهزيل، يطارده الفقر والموت، في كل لحظة، ليس لشيء إلا كونه مثقفا تجذّرت فيه الروح الوطنية.

وإن استحال إحصاء دلالة كل المواصفات التي لا تزيد في معظمها عن تثبيط وتكسير إرادة المثقف"بوط" في الفعل الإصلاحي، وتدفعه إلى الوقوف بعيدا عن واقع مجتمعه السياسي والاقتصادي والثقافي، تحت طائل التهديد والقتل والتصفية، مما جعله يتخلى عن لوازمه التي ربما قد تشي بأنه مثقف، إلا أن السارد فاق هذه الحتمية، ليستمر الحدث الروائي من خلال تقديمه للبطل في مرحلة حاسمة من تاريخ الجزائر (الأزمة الوطنية) يحددها السن ستا وثلاثين سنة، الذي يحيل إلى النضج الفكري والعقلي، الذي يتطلبه علاج الواقع الثقافي والسياسي الجزائري العنيف.

وأثناء هذه المرحلة يزداد المشهد الوصفي قوة في التكثيف الدلالي المحيل إلى رحلة المثقف الشاقة"متنكرا في زي رجل يمسك عكازا"[7]، تائها بين شوارع المدينة وأزقتها، وبين فندق الحاج (نزل مرحبا)، الذي يعكس إلى حد بعيد من خلال افتقاده لأدنى شروط المبيت والضيافة، مدى الهوان والذل الذي عانته النخبة المثقفة، من ويلات الإرهاب، إضافة إلى اعتماد طرقها الخاصة في البحث عن الأمن والسلم الاجتماعيين، وتنتهي هذه المرحلة بوقوع "عبد الحميد" بين أيدي الجماعة الإرهابية بقيادة "جعفر بوذا" أين يتجسد الفعل الإصلاحي التوعوي للبطل.

2.2.2 عامل التشخيص النفسي (الداخلي):

تبقى تلك السمة النفسية التي تبرز الشخصية المثقفة في حالة جلد الذات ولومها وتحميلها مسؤولية النهوض بالمجتمع نحو واقع ثقافي أفضل، من أهم السمات الغالبة عل البطل الروائي في النصوص الروائية لإبراهيم سعدي، كما في "بوح الرجل القادم من الظلام" و"بحثا عن آمال الغبريني"، غير أن هذه السمة في "صمت الفراغ" وظّفت لأجل تأكيد قيمة أساسية لا يبنيها موقف فكري فحسب، بل تبنى ضمن الإستراتيجية السردية ذاتها[8] .

إنها استراتيجية "الأنا المثقفة" التي تكون في لحظة زمنية مضبوطة أمام نفسها، وفي فضاء مضبوط وعليها أن تختار، إما تذعن وتركن للواقع الثقافي المتدني، أو تسعى إلى تغييره وإصلاحه. وللحكم على إيجابية هذه القيمة، تتضافر أغلب الملامح النفسية للبطل "بوط" لتبين أهم الركائز المعتمدة في بناء النخبة الوطنية، التي يفوق اهتمامها الفكر الثقافي، ما عداه من الاهتمامات المادية والأنانية الإيديولوجية المتفردة.

ولهذا نجد الانطوائية التي ميّزت شخصية المثقف "عبد الحميد" مع مستهل الحدث السردي، ما تلبث أن تتلاشى، موحية بالتوقع والتحدي الذي يجده المثقفون في الصمت، بوصفه رد فعل إزاء قرارات السلطة السياسية، عوض التذلل والانصياع لأوامرها التي تمس في كثير من الأحيان مبادئ هؤلاء، وتعتبر أهم المواقف التي اتخذها "بوط" حيال مدير الجريدة ورئيس تحريرها؛ خير دليل على ذلك، حيث أصرّ على عدم طلب المساعدة للعودة إلى العمل بعد فصله "مخافة أن يسيء زملاؤه فهمه، ويظنون أنه يحاول استدرار شفقتهم"[9].

بل حتى الانكسار والخيبة التي تختلج في دواخل هذه الشخصية، تجعلها بمنأى عن علم باقي الشخصيات، على غرار "حمو سمير" الزميل الصحفي الذي لم ينل من الأسرار العاطفية والشخصية للبطل كثيرا، فكلما "خطر له أن يخبره بما فعلت به شهرزاد... في النهاية يشير إلى الأمر من بعيد ولا من قريب"[10]، بل وتتعالى مكانة المثقف حينما يجعل منه السارد شخصية تنصف الناس وتهبهم حقهم دون أن تعبأ بعزة النفس وهواها، وهذا يجليه التماس العذر للشخصيات العدوانية (الخائنة) مثل شهرزاد التي تخلت عنه، والطفل الإرهابي الذي وكّل بقتله دون أن يتناسب حجم الفعل مع عمر الفاعل.

3. البناء الوظائفي للمثقف في رواية "صمت الفراغ":

تنقسم الوظائف التي يؤديها المثقف في النص إلى ثلاثة أقسام أساسية، يحيل إلى كل منها علاقة البطل "عبد الحميد بوط" بالفواعل المثقفة المتبقية، وهذه العلاقات بذاتها تختزل أطراف الصراع السياسي والثقافي بالجزائر، وتحمل في طياتها أيضا مواقف المثقف الوطني من الممارسة الإيديولوجية للسياسة ورجال الدين، وتبرز أهم هذه العلاقات فيما يلي:

1.3 علاقة المثقف بالسلطة:

تتحدّد علاقة المثقف بالسلطة في الرواية من خلال العلاقة التي تربط البطل الصحفي "بوط" بأجهزة الدولة ومن يديرها مثل: جريدة الصدق ومقر الأمن، وقد بدت هذه "العلاقة التي شكّلت موضوعا لعدة كتابات روائية عربية دائما مختلفة، يحكمها الصراع الأبدي بين طرف يريد التغيير (المثقف) وطرف يحاول المحافظة –بقوة القمع- على ما هو كائن (السلطة)"[11]، وتتمثل طبيعة هذه العلاقة في ما يلي:

- وظيفة نقدية يتزعمها المثقف الصحفي اتجاه السلطة (جريدة الصدق)
- وظيفة قمعية يديرها حسن خندق والمدير ضد البطل "عبد الحميد بوط".

لقد انبنت الوظيفة النقدية في النص على جملة من الأفعال التي يقوم بها المثقف "بوط" قصد فضح السلطة لتنكشف حقيقتها وألاعيبها، وتختزل هذه الأدوار أغلب أسباب العنف الدموي في الجزائر وهي:

1.1.3 التزييف الإعلامي:

ففي الجهاز الإعلامي "جريدة الصدق ظل المثقف الصحفي "بوط" يعاني من أن "كتب موضوعا قدّم فيه قراءة شخصية للأحداث التي صارت تعصف بالبلاد"[12]، من الرقابة التي يفرضها "حسن خندق مدير جريدة الصدق على

كتاباته متصرفا فيها بالبتر والتحوير، كتلك التحقيقات التي كتبها عن مدينة "عين لبكاء" وعن مقتل زميلته "زبيدة" وعن قرية "أم السبع"[13].

إن هذا السلوك القمعي والمواقف العدائية التي تبديها شخصية "حسن خندق" اتجاه الصحفي "عبد الحميد بوط"، تترجم في مضمونها مدى حرص السلطة في فرض سيطرتها، والتحكم في الميدان الإعلامي قصد تسخيره لمحاربة وصد كل ما من شانه أن يقف عائقا في وجه ديمومتها في التسيير، وبرنامجها السياسي، لأن "الإعلام هو الصدى الطبيعي للسياسة، ولا جرم أن السياسة هي أيضا صدى الإعلام ومفعوله العضوي، إذ ليس الإعلام إلا تلك الآلة التي ينافح لها الساسة عن مكاسبهم، والقناع الذي من خلاله يتلونون ويؤدون الأدوار"[14].

لقد حاولت السلطة عن طريق التزييف الإعلامي، أن تسخّر المثقف الصحفي وتجرّه إلى فلكها، لتعلن بذلك قيامها على طاقات ثقافية من جهة، وتنشر العداء وتقضي على كل صداقة يمكن أن تنشأ بين المثقفين، وأي اتجاه إيديولوجي يعارض مصالحها من جهة أخرى. لذا تلقى شخصية "حسن خندق" رئيس تحرير "جريدة الصدق" يورّط "عبد الحميد" ليدخله في صراع مع "الجماعة الإرهابية" من خلال حشو "تحقيقاته بأوصاف مثل البربرية، الوحشية للإنسانية..."[15]، وكل الصيغ التعبيرية التي تصعّد من حدة اللهجة الإعلامية ضد شخصية قائد الجماعة "جعفر بوذا".

2.1.3 غياب العامل الثقافي وانعدام الأمن الفكري:

يدين السارد في النص السياسة التعليمية المتبعة في المجتمع الجزائري، من خلال بناء الشخصيات العدوانية بصيغة جمعية، تؤكد تفريط السلطة وفشلها في تحقيق أمن فكري، وترسيخ وحدة ثقافية تحكم وحدة الطبقات الاجتماعية، حيث تحيل أغلب التحقيقات والتقارير الصحفية التي يكتبها البطل الصحفي "بوط" إلى أن الموت والعنف الذي يطارد فئة المثقفين بالجزائر أثناء التسعينات، أداته جيل الشباب الذي استغلته الاتجاهات الإيديولوجية ليحرك رحى الصراع في أحداث الانقلاب العنيف.

ومع خطورة التيار الإيديولوجي الجارف، لم تكف صرخة المثقفين في مجه السلطة من أجل حماية الطاقات الشبّانية من تسلّط التطرّف الديني، وبذلك تركزت أدوار البطل في الرواية على الإصلاح والتربية السلمية، وتستمد هذه

الروح النضالية للصحفي "بوط" من خلال نظرة الأسى والتحسر والشفقة التي أبداها على ذلك الإرهابي الشاب الذي وكّل بقتله في حواره مع "فلة":

-"تعرفين فلة، إنني لا أؤمن بالمعجزات، لكن لا أدري كيف حدث ذلك الشاب أن فاته القضاء علي.

-شاب، كم عمره:

- ثماني عشرة سنة عل أكثر تقدير.

- إنه طفل !

- هذا ما يؤلمني في الحقيقة، فلة.

ماذا فعلنا لهم؟ هل أسأنا تربية أطفالنا إلى هذه الدرجة؟ آواه فلة لقد جعلنا منهم قطاعي رؤوس، لا رحمة في قلوبهم.

- أجل أنشأنا جيلا لا يعرف إلا الذبح"[16].

إن الإلحاح على ضرورة التربية والتعليم، يهدف من خلاله الروائي المتخفي ببطله المثقف "بوط" إلى فشل السياسة المتبعة من البرنامج التعليمي والتي تفتقر إلى المعارف التي تنمي الوطنية ،كما يهدف من جانب آخر غلى الدور الفعال للنظام التربوي بما يتضمن من متغيرات، إما في تعزيز الهوية الثقافية، أو تهميشها وإضعافها.

2.3 علاقة المثقف بالمعارضة (الجماعة الإسلامية) :

بدأ السارد على لسان بطله المثقف "بوط" في إشارة منه إلى تلك الحماسة الزائدة والاندفاعية اللامدروسة، التي انتهجتها المعارضة (الإرهاب) بعد "فشل حملة الانتخابات التشريعية (1992) التي لن تجري دورتها الثانية أبدا"[17] انطلاقا من طبيعة أفعال شخصية "جعفر بوذا" وتسميتها وصفاتها وكل العلاقات التي تربطها بما يحيط بها في المجتمع.

إذ نجد اسم "الجعفر" في اللغة ذلك النهر الملآن، الواسع الكبير[18]. بامتلاء شخصية الإرهابي بالأفكار القمعية التكفيرية، التي تتسم ممارستها بطقوس العقيدة البوذية، وتنفي عنها أي شرعية إسلامية للفعل الإجرامي بالجزائر.

لقد ظل الانتصار للذات والخضوع للأحادية في الرأي أبرز خاصية اتّسم بها "جعفر بوذا" في النص، لذا وجدنا أغلب الوظائف التي تقوم بها هذه الشخصية ذات صبغة عدوانية، عززتها في أكثر من موقف الملفوظات السردية الموحية بانسداد قناة الحوار التي تعدّ السبيل الوحيد لانفراج الأزمة الوطنية.

وفي سبيل الكشف عن الميكانيزمات المحركة لرحى الصراع الدموي، ومدى صلتها بالطبقة المثقفة، خاض إبراهيم سعدي في تناول حيثيات ووقائع العشرية السوداء وفق أسلوب سردي بدا أكثر إفصاحا عن تلك الجدلية الأزلية بين الدين والسياسة، وبين العلم والدين أيضا، وعليه نجد أغلب الشخصيات المثقفة والرئيسة في الرواية ذات توجهات إيديولوجي متباينة بتباين التوجهات السياسية آنذاك. ومما يسهل علينا استنتاج أهم الدوافع التي أدت إلى نشوب الصراع وظهور الفكر التكفيري المتطرف هو التكثيف الدلالي عبر الفعل الذي يتحول كون قيمي يغذي السلوك الخاص لكل شخصية[19]، ومن أم الدوافع نذكر:

1.2.3 احتدام الصراع الثقافي:

أتت الرواية من حيث الحدث السردي لتحمل ثلاث محاور أساسية عدّت الركائز الأساسية لتسيّب الصراع الثقافي بالجزائر، ممثلة في توجهين مختلفين في الأسس والإيديولوجيات، وليس أدل على ذلك من حرص شخصية المثقف الصحفي "بوط" في العودة إلى الماضي الزمني من عمر الشخصيات المثقفة الدينية "بوذا" وأتباعه، لتمدنا بالإرهاصات الأولية لهذا الصراع، وهو الذي بدا منذ زمن التكوين الدراسي بالجامعة. حيث انقسم المحيط الطلابي بين أتباع الاشتراكية الذين وصفهم "جعفر بوذا" آنذاك "بأولئك الشباب، أصحاب الشعر الطويل كشعر النساء... فقدوا الإيمان بالله، أتباع رجل يدعى بأنه جاء لخلافة الأنبياء والرسل، أتى بكتاب غير منزل ليناقض به الكتب السماوية ويبطلها"[20].

فالصراع في هذا السياق يجلي غائية الفعل السردي، كما يحدد من جانب آخر توالي الأفعال التي تقوم بها الفواعل في النص، قصد إبراز نوع من الانحراف الذي ساد البنية الأساسية للنخبة والمجتمع معا، لذا أصبح المثقف وعوضا أن يكتب في سجله التاريخي ما يرقى بالأمة ويثبت ديمومتها، يرضخ لتلك الإملاءات الإيديولوجية الذاتية التي لا تزيد في غالبها إلا من حدة التوتر والتراجع الثقافي، وأداة تفريغ الأزمة من إمكانيات الحلول.

ومن هذا المنظور، أصبحت المشكلة الأساسية في الجزائر، كما يشرحها "عبد الحميد بوط" تتعدى مسألة الإيديولوجيا، إلى مسألة الاقتناع بالمشروع الذي تسعى إلى تحقيقه أطراف الصراع. لذا نرى أغلب التساؤلات التي يطرحها على نفسه جوهرية، تمس حقيقة مسألة القناعات السياسية، كقوله:"هل كان على

صواب دائما في مواقفه، حين كان يدافع عن الاشتراكية وعن الثورة الزراعية ويقضي عطله الصيفية وسط الفلاحين؟"[21].

هذا بالإضافة إلى الرقابة الفكرية التي انحصر دورها وتراجعت فاعليتها بفعل غياب المثقف أو الصوت الثقافي العلمي والعقلي معا، إذ أصبح هذا التمايز بين الديني والشيوعي والرأسمالي يدفع إلى الاختلاف في الرؤى وتجاوزه غلى الدفاع عن الإيديولوجيا بالقوة، وما استئصال المثقف الوطني "بوط" وغيره إلا دلالة على انفلات الوضع خارج نطاقه الثقافي.

2.2.3 خلخلة بنية الثقافة الدينية:

يسعى نص "صمت الفراغ" إلى محاولة إمداد القارئ؛ بكل ما له صلة بالمأساة الوطنية وبعدول الصراع الثقافي عن نسقه المألوف، بين شخصية المثقف "بوط" وسائر الشخصيات الأخرى على اختلاف مشاربها الإيديولوجية.

وتأتي تلك الخلخلة التي أصابت بنية النسق الثقافي بعد الاستعمار في طليعة الأسباب التي غذّت بذور الفكر المتطرّف، حيث يعود بنا المثقف "عبد الحميد بوط" إلى الحفر في الذاكرة من خلال تلك الأسئلة التي كان يوجهها لـ صونيا" بنت شيخ الطريقة الصادقية:

- حدثيني عن سلفك الصوفي سيدي أحمد، الجميع يجله في هذه المدينة.
- الجميع؟ لا ليس الجميع. أتباع جعفر بوذا يكفّرونه.
- لكن باستثناء جعفر بوذا، الجميع يجلّه.
- وأنت؟
- ... راحت تقول:
- فعلت كل ما هو محرم في عين البكاء، شربت الشاي في المقهى، دخنت، أكلت شهر رمضان علنا... لهذا لست في نظر هذه المدينة غير فاسقة وفاجرة وخارجة عن الدين"[22].

لقد اختزلت شخصية "صونيا" في النص الحالة التي تمظهر بها الفرد الجزائري، والوضعية التي آل إليها التديّن، حيث طفت إلى السطح جملة من السلوكات والانتهاكات لحرمات الشريعة الإسلامية، كشرب الخمر، التدخين، أكل رمضان[23]، وهذه السلوكات بدورها استغلها "المثقف الديني بوذا" ليجعل منها مسوغات لقيام الدولة الإسلامية، وإحقاق الحق والقضاء على "الباطل الذي جاء به الكفار والمشركون والمعتزلة والفلاسفة وكارل ماكس"[24].

4. علاقة المثقف بالمجتمع :

لقد غلب الفعل الإصلاحي على أهم الوظائف التي يقوم بها المثقف "عبد الحميد بوط" في النص، وتركزت جهوده كلها قبل ذلك حول قضية جوهرية يعانيها المجتمع الجزائري بل والعربي، وهي مسألة "الهوية"، التي لا تتحقق ولا يمكن للأمة "أن تبادر إلى عمل أو تقوم بإنجاز مشروع مهما كان نوعه أو حجمه دون أن تعرف نفسها، وتحدد مكانها ودورها وشرعية وجودها"[25]. ويمكننا أن نستنتج أهم الأدوار الوظيفية الإصلاحية لشخصية "عبد الحميد بوط" كما يلي:

- الجانب التعليمي التربوي (الدعوة إلى إصلاح المنظومة التربوية)
- الجانب الديني (الدعوة إلى العودة إلى المرجعية الشرعية التاريخية للإسلام)
- الجانب الاجتماعي (الدعوة إلى الحوار، المثاقفة)
- الجانب السياسي(الدعوة إلى بلورة الفكر السياسي وافتتاحه على كل الجبهات، وتعزيز الممارسة الديمقراطية)
- الجانب الثقافي (الدعوة إلى التوفيق بين التراثيين والتحديثيين لتحقيق الهوية الوطنية)

لقد تجلت وظيفة الإصلاح على جميع المستويات عبر مرحلتين من حياة البطل المثقف "بوط" وهما:

1.4 مرحلة ما قبل حدوث العنف:

والتي لعب فيها المثقف الوطني دور الوسيط بين السلطة والمعارضة، محاولا تقريب وجهات النظر، إلا أن محاولاته باءت كلها بالفشل ولم يتحقق موضوع القيمة في النص، فلا السياسي "حسن خندق" ولا الإسلامي المتطرف "بوذا" استنارا بما يمليه العقل السليم، والفكر القويم "بل راح كلاهما يدير ظهره لزميله"[26].

2.4 مرحلة تأزم الصراع وعلانيّته:

في هذه المرحلة بالذات حاول المثقف أن يكون أكثر جرأة في التبليغ، فتتوافر وتتلاحم كل الأساليب البلاغية في خطابه، التي تزيد من عزمه على النضال، وتقضي على العوائق التي تفصل بين الوعي الشعبي، ويسمو أحيانا بفكره ليناقش بعض قضايا الوجود كالموت والحياة وغايات التاريخ الإنساني...[27].

كما نجد النزعة الوطنية للمثقف الجزائري، تدفعه بعد كل هذه التضحية وتقديم نفسه فداء للوطن، إذ أن شخصية "عبد الحميد" تتعارض مع كل الشخصيات الأخرى(أتباع جعفر بوذا، طاقم جريدة الصدق، الأمن...) وللكشف عن المعنى الحقيقي للنخبة الوطنية، وإبراز تضحياتها ركّز "إبراهيم سعدي" في "صمت الفراغ" على تسليط الضوء على كل جوانب شخصياته، فـ "حسن خندق" و"خليفة برج" بعد اشتداد الصراع لم يجدوا ملاذا إلا الهجرة إلى أوروبا، بينما المثقف "بوط" وبالرغم من سهولة هجرته إلى كندا حيث تقطن أخته "جوهر"؛ إلا إنه آثر مصلحة الوطن ولم يؤمن بالقول الذي أصبح قاعدة للنجاة في الجزائر "عندما تغرق السفينة، ليس محاولة إنقاذها، بل إنقاذ نفسك"[28].

لقد تميزت شخصية المثقف في النص بأهمية كبرى، ميّزتها عن غيرها من الشخصيات باعتبارها ممثلة لدائرة الوعي الفاعل داخل المجتمع، وتتجلى خاصية التميّز التي أفردها "سعدي" بالحضور السردي المكثّف هي مهنة الصحفي "بعد أن ظل الناس يجهلون وجود شاعر اسمه عبد الحميد بوط، ناهيك بديوانيه الوحيدين والبائسين"[29]. وربما هذا الجهل ناتج عن تراجع نسبة المقروئية للأعمال الفنية، إضافة أن الصحفي هو "الأكثر اطّلاعا بهموم واقعه والأقدر على رصد معاناة ذلك الواقع، كما أن ذلك الموقع يجعله قريبا من المؤسسة السياسية السائدة، ومن ثم فهو يخوض صراعا إيديولوجيا معها عبر وسيلة إعلامية لها انتشارها بين مختلف الشرائح"[30].

إن شخصية المثقف الصحفي "عبد الحميد بوط" تعدّ صورة للمثقف الإيجابي بالجزائر، الذي يكشف ضمن البنى المضمونية للنص، عن نوعين مختلفين من الطبقات الاجتماعية، أوّلهما طبقة الساسة ورجال الأعمال ممن ينعمون بالأمن" أولئك المدللين المقيمين في المنطقة الآمنة التي تشيّدها الدولة في العاصمة على شاطئ البحر"[31]، وثانيهما الطبقة المهمّشة الكادحة التي تعمّر الأرياف والمدن الأخرى، كمدينة "عين لبكاء" في النص، التي يتربص فيها الموت "بالإنسان عند كل منعطف، في أي وقت، بعد كل خطوة. حضوره الدائم يجعل المدينة كما لو أنها في مأتم مستمر، لا نهاية له. الجو يلوح كما لو أنه ملوث بداء الطاعون..." [32].

5. خاتمة:

لقد طرق نص "صمت الفراغ" مسألة جدلية تجسّدت من خلال الصراع القائم بين السلطة والمعارضة في الجزائر، وأرست لفترة تاريخية مؤسسة على صراع إيديولوجي؛ أثبت فيه المثقف الوطني الدور الذي يجب أن تقوم به النخبة في ابتداع واصطناع تلك التوليفة الثقافية، التي تحددّ الأطر التي تسبح في الإيديولوجية من جانبيها النظري والعملي، وحاول الروائي أيضا أن يختصر موقف المثقف في الرؤية الآملة في إنشاء مصالحة وطنية؛ تجسّد النضج السياسي والثقافي لأطراف الحكم والمعارضة، دون أن يعبأ بما يتعرض له الصوت الثقافي من إنكار وتجاهل.

6. هوامش البحث:

1-ينظر: يحي بن الطاهر، واقع المثقف الجزائري من خلال رواية تجربة العشق لوطار، منشورات التبيين، الجزائر، ط:01، 2003، ص: 11،12.
2-إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط:01، 2006، ص:05، 06.
3-إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 13.
4-ينظر: جويدة حماش، بناء الشخصية. في حكاية عبدو والجماجم والجبل لمصطفى فاسي، منشورات الأوراس، الجزائر، ط: 01، 2007، ص: 71، 72.
5-إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 13.
6- نفسه، ص: 14.
7- نفسه، ص: 19.
8- ينظر: سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:01، 2008، ص:191.
9- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 14.
10- نفسه، ص: 08.
11- يحي بن الطاهر، واقع المثقف الجزائري من خلال رواية تجربة العشق لوطار، ص: 54.
12- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 06.
13- ينظر: نفسه، ص: 08، 69، 91.
14- عشراتي سليمان، الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي في الجزائر، دار الغرب للنشر، وهران، الجزائر، 2003، ص: 234.
15- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 08.

16- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 98.
17- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 31.
18- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط:03، 1994، مج: 04، ص:142.
19- ينظر: سعيد بنكراد، السيميائيات. مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط:02، 2005، ص:242.
20- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 34.
21- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 33.
22- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 81.
23- ينظر: نفسه، ص: 07، 68، 85.
24- نفسه، ص: 34.
25- ينظر: برهان غليون، اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:04، 2006، ص: 34.
26- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 81.
27- ينظر: إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 41، 44، 105، 133.
28- نفسه، ص: 68.
29- نفسه، ص: 45.
30- حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، مجلس الثقافة العام، سرت، ليبيا، 2006،ص:363.
31- إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، ص: 80.
32- نفسه، ص: 17.

7. قائمة المراجع:

1. إبراهيم سعدي، صمت الفراغ، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، ط:01، 2006.
2. برهان غليون، اغتيال العقل، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:04، 2006.
3. جويدة حماش، بناء الشخصية. في حكاية عبدو والجماجم والجبل لمصطفى فاسي، منشورات الأوراس، الجزائر، ط: 01، 2007.
4. حسن الأشلم، الشخصية الروائية عند خليفة حسين مصطفى، مجلس الثقافة العام، سرت، ليبيا، 2006.
5. سعيد بنكراد، السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط:01، 2008.
6. سعيد بنكراد، السيميائيات. مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ط:02، 2005.
7. عشراتي سليمان، الخطاب السياسي والخطاب الإعلامي في الجزائر، دار الغرب للنشر، وهران، الجزائر، 2003.

8. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط:03، 1994، مج: 04.
9. يحي بن الطاهر، واقع المثقف الجزائري من خلال رواية تجربة العشق لوطار، منشورات التبيين، الجزائر، ط:01، 2003.